من «قضايا الشعر المعاصر»

قصيدة النثر

بقلم نازك الملائكة

شاعت في الجو الادبي في لبنان بدعة غريبة في في السنوات العشر الماضية فاصبحت بعض المطابع تصدر كتبا تضم بين دفاتها نثرا طبيعيا مثل اي نثر آخر ، غير انها تكتب على اغلفتها كلمة (شعر) . ويفتح القاريء تلك الكتب متوهما انه سيجد فيها قصائد مثل القصائد ، فيها الوزن والايقاع والقافية ، غير انه لا يجد من ذلك شيئا وانما يطالعه في الكتاب نثر اعتيادي مما يقرأ في كتب النثر . وسرعان ما يلاحظ ان الكتاب خلو من أي أثر للشعر فليس فيه لا بيت ولا شطر ولا قافية . واذن فلماذا كتبوا على الغلاف انه شعر ؟ تراهم يجهلون حدود الشعر ؟ أم انهم يحدثون بدعة لا مسوغ لها ؟ واذا كانوا يملكون المسوغ فلماذا لا يصدرون كتب النثر هذه بفذلكة يبينون فيها للقاريء الوجه الذي ساغ لهم به ان يصدروا كتاب نثر لا يختلف اثنان في أنه نثر ثم يكتبون عليه أنه «شعر»؟ لماذا لا يمنحون القاريء ، على الاقل ، فرصة يتخذ فيها موقفا من هذه البدعة فاما ان يرى وجه تسويغاتهم فيقرهم عليها او ان يخالفهم فيرفضها ؟ وانما الخطأ ، أن يمضي المرء فيسمي النثر شعرا دون اي تبرير ، وكأن ذلك امر بديهي يتفق الناس كلهم عليه منذ أقدم العصور .

والحقيقة ، التي يعرفها المختصون والمتتبعون ، أن طائفة من ادباء لبنان يدعون اليوم الى تسمية النثر شعرا . وقد تبنت مجلة (شعر) هذه الدعوة الركيكة الفارغة من المعنى ، واحدثت حولها ضجيجا مستمرا لم تكن فيه مصلحة لا للادب العربي ولا للغة العربية ولا للامة العربية نفسها . وكان مضمون هذه الدعوة ما جاء في مقال كتبته السيدة الاديبة خزامى صبري عن كتاب نثر فيه تأملات وخواطر لاديب لبناني ناشيء . قالت عن ذلك الكتاب :

(مجموعة شعرية لم تعتمد الوزن والقافية التقليديتين . وغالبية القراء في البلاد العربية لا تسمي ما جاء في هذه المجموعة شعرا باللفظ الصريح . ولكنها تدور حول الاسم فتقول انه (شعر منثور) او (نثر فني) وهي مع ذلك تعجب به وتقبل على قراءته ، ليس على اساس انه نثر يعالج موضوعات او يروي قصة او حديثا ، بل على اساس انه مادة شعرية . لكنها ترفض ان تمنحه اسم الشعر .

وهذا طبيعي ، من وجهة نظر تاريخية ، بالنسبة للقراء العاديين . اما النقد فيجب ان يكون اكثر جرأة ـ أن يسمي الاشياء باسمائها الحقيقية . وأنا اعتبر هذا « النثر الشعري » شعرا .) (١)

وقبل ان نفحص مضمون كلام الكاتبة نحب ان نقتطف للقراء نموذجا من خواطر محمد الماغوط مؤلف الكتاب الذي تتحدث عنه ، ليلاحظ القاريء انه نثر طبيعي كالنثر ، على الرغم من ان كاتبه ينثره على اسطر كما لو انه كان شعرا حرا . ولسوف نكتب هذا النثر كما ينبغي ان يكتب النثر ، راجين ان يعذرنا كاتبه . قال الكاتب (وهو يملك ذوقا ادبيا جميلا وأصالة تسيء اليها الروح الاوروبية المصطنعة التي يدخلها قسرا على عباراته وخواطره) قال من خاطرة سماها (المسافر) :

(بلا أمل ، وبقلبي الذي يخفق كوردة حمراء صغيرة ، سأودع اشيائي الحزينة في ليلة ما : بقع الحبر وآثار الخمرة الباردة على المشمع اللزج ، وصمت الشهور الطويلة ، والناموس الذي يمص دمي هي اشيائي الحزينة ، وسأرحل عنها بعيدا بعيدا ، وراء المدينة الغارقة في مجاري السل والدخان بعيدا عن المرأة العاهرة التي تغسل ثيابي بماء النهر وآلاف العيون في الظلمة تحدق في ساقيها الهزيلين ، وسعالها البارد يأتي ذليلا يائسا عبر النافذة المحطمة . والزقاق المتلوي كحبل من جثث العبيد) .

على هذا النمط جرت الخواطر في هذا الكتاب ؛ فيها صور غريبة وتخير للالفاظ وتلوين غير انها مكتوبة نثرا اعتياديا كالنثر في كل مكان وزمان . ولذلك يلوح غريبا ان دار مجلة شعر التي طبعت الكتاب قد أباحت لنفسها ان تضع عنوان الكتاب على غلافه بهذا الشكل :

حزن في ضوء القمر

شعر

وكأن تسمية النثر شعرا مسألة بديهية مفروغ منها . ولعله لا يخفى على اصحاب الدار ان مئات من القراء لا يملكون حاسة الوزن ليدركوا ان هذا نثر لا شعر حر ، ومن ثم فقد كان عليها ــ على الاقل ــ ان تصدر الكتاب بمقدمة تضع فيها تبريرا يسوغ تسمية النثر شعرا ، فان ذلك يمنح القاريء حريته فاما ان يقبل او ان يرفض .

ومهما يكن من أمر فان كلام خزامى صبري الذي اقتطفناه يتضمن ، في مفهوم النقد الموضوعي ، الحقائق التالية :

(اولا) تميز خزامى صبري بين شيئين هما :

أ ــ الوزن التقليدي وهو الوزن مطلقا .

ب ــ الوزن غير التقليدي وهو النثر في عرفنا .

(ثانيا) تقول خزامى صبري ان الشعر شيء لا صلة له بالوزن والقافية . وانما الوزن صفة عارضة يمكن ان يقوم الشعر من دونها ، ولذلك يتحدث اصحاب هذه الدعوة

---

(١) الكتاب المقصود هو كتاب (حزن في ضوء القمر) للاديب محمد الماغوط وفيه نثر اعتيادي لا اثر فيه للوزن او القافية . وقد نشر تعليق خزامي صبري في مجلة شعر . بيروت . العدد ١١ صيف ١٩٥٩

باحتقار عن الشعر (الموزون) (٢) وبذلك لا يكتفون برفع النثر الى جوار الشعر ومساواته به وانما يزيدون فيزدرون الموزون ويعطون لنثرهم الفضل كله . قال احد دعاة هذه الفكرة الهجين : (٣)

(ولذلك فان شعر توفيق صائغ لا يخسر شيئا باطراحه شكل القصيدة التقليدي ، بل يحقق الطريقة الوحيدة التي تمكنه من قضيته) . (٤)

هذه هي خلاصة دعوة مجلة (شعر) وهي تصدر في بيروت بلغة عربية وروح أوروبية . وقد دعت اليها في عنف واثارت حولها ضجيجا متصلا خلال السنين الماضية ، وتطرف حاملو الدعوة الى ان المستقبل الاوحد انما هو لهذا (الوزن غير التقليدي) كما يسمونه ، او (الوزن غير الموزون) كما اقترحت عليهم ، على سبيل الدعابة ، ان يسموه . كتبت مجلة شعر تقول ان شعراء معروفين يذهبون الى « ان المستقبل انما هو لهذا الشعر الحديث الذي يبتعد في شكله ومضمونه عن الفترة السابقة وما قبلها) . (٥) وكتب جبرا ابراهيم جبرا يقول أن السنين القادمة « سترى ولا شك تغلب الشعر الحر » ولنلاحظ انه اخذ ، دون مبالاة ، اصطلاحنا (الشعر الحر) الذي هو عنوان حركة عروضية تستند الى بحور الشعر العربي وتفعيلاتها ، اخذ اصطلاحنا هذا والصقه بنثر اعتيادي له كل صفات النثر المتفق عليها ، وليس فيه اي شيء يخرجه عن النثر في المصطلح العربي . وليته على الاقل ترك اصطلاحنا ووضع غيره حرصا على وضوح الاصطلاحات في اذهان جماهيرنا العربية المتعطشة للمعرفة . وانما سمينا شعرنا الجديد (بالشعر الحر) لاننا نقصد كل كلمة في هذا الاصطلاح فهو (شعر) لانه موزون يخضع لعروض الخليل ويجري على ثمانية من اوزانه، وهو (حر) لانه ينوع عدد تفعيلات الحشو في الشطر ، خالصا من قيود العدد الثابت في شطر الخليل . فعلى اي وجه تريد دعوة النثر ان تسمي النثر شعرا حرا ؟ وما هذه الفوضى في المصطلح والتفكير لدى الجيل الذي يقلد اوروبا في كل شيء تاركا تراث العرب الغني المكتنز ؟

ان المضمون الواضح لهذه الحماسة من اصحاب الدعوة هي ان النثر سائر ، في رأيهم ، الى ان يقتل الشعر، وان دولة الوزن ستدول فيكتب شعراء الامة العربية نثرا وتنتهي من الوزن . وهكذا يذهب هؤلاء المتحمسون الخياليون الى ان الشعر شيء عتيق ينبغي ان يزول ويحل محله النثر ، على أن .... – انتبه أيها القارىء فانهم يشترطون شرطا – على ان يحتفظوا بالكلمات (شعر) و (شاعر) و (وزن) لانهم يريدونها لتسمية النثر والناثر وما يكتب . وهذا يبدو لنا من أعجب المفارقات ، والحق يقال .

والاساس النفسي في هذه الدعوة أن هؤلاء الكتاب الافاضل ، الذين يحسنون ابداع نثر جميل احيانا، يزدرون ما يمتلكون من موهبة ويتطلعون الى ما لا يملكون . انهم ، باختصار ، لا يحترمون النثر ، وذلك هو اساس الاشكال الذي وقعوا فيه . انهم مهما ابدعوا من صور وافكار في قالب نثري ، يحسبون انهم ما زالوا اقل ابداعا من شاعر يخلق هذا الجمال نفسه ولكن بكلام موزون . ولذلك تراهم يعبرون عن ازدرائهم لموهبتهم باطلاق كلمة (شعر) على ما يكتبون. وكانوا في السنين الخالية يقولون (شعر منثور) مشيرين بكلمة (منثور) على الاقل الى انه (نثر) فاصبحوا اليوم من الاستهانة بالمقاييس الموضوعية ، بحيث يجرؤون على ان يسموه شعرا على الاطلاق . لا بل انهم اصبحوا يحتقرون الشعر ويسمونه (تقليديا) لكي يجعلوا الابداع والتجديد قاصرا على نثرهم المبتكر فهو الشعر الاوحد برغم المقاييس كلها .

ولعله واضح ان دواء هذا الاشكال ان يمتلك هؤلاء الكتاب الثقة بالنثر . فمن قال لهم ان النثر وضيع او انه لا يمنح قائله صفة الابداع ؟ ولماذا يحسبون ان نثرهم لا يكتسب الاعجاب الا اذا هو مسخ ذاته وسمى نفسه (شعرا) ؟ ولنفرض اننا وافقناهم وسمينا نثرهم شعرا فهل ترى الاسم يغير من حقيقته شيئا ؟ او يزيده تغيير الاسم شرفا أو جمالا ؟

والذي يعرفه الملايين ان كثيرين من كتاب العربية قد كتبوا النثر « الشعري » ولنا في العصر الحديث منهم طائفة مرموقة مثل اديب العربية الفذ مصطفى صادق الرافعي والكاتب المرهف جبران خليل جبران وغيرهما كثير ، وليس ينقص من قيمة ما كتبوا انه نثر لا شعر . ولقد كانوا يسمون نثرهم نثرا دون ان يسيئوا اليه في شيء . وبعد فهل اجمل من القرآن في اللغة العربية ؟ والقرآن نثر لا شعر ، وفيه ، مع ذلك ، كل ما في الشعر من ايحائية وخيال وثاب وصور معبرة والفاظ مختارة اختيارا معجزا ، فهل ينقص من قيمة القرآن الجمالية انه نثر لا شعر ؟ واي شعر في الدنيا أروع وأحب من هذا النثر القرآني المسكر ؟

وخلاصة الراي أن للنثر قيمته الذاتية التي تتميز عن قيمة الشعر ، ولا يغني نثر عن شعر ولا شعر عن نثر ، لكل حقيقته ومعناه ومكانه . فلماذا جاء هذا الناثر المعاصر ليزدري النثر ويحاول رفعه بتسميته شعرا ؟

هذا هو السؤال . ونحن نوجهه الى انصار هذه الدعوة لعل له ، عندهم ، من جواب .

وخلال ذلك ، نحب أن نتفرغ لمناقشة هذه الدعوة وسوف تكون مناقشتنا في اتجاهين : احدهما على اساس اللغة ، والآخر على اساس النقد الادبي .

المناقشة اللغوية

تقع دعوة « قصيدة النثر » في خطأ كبير هو انها تطلق كلمة (شعر) على الشعر والنثر معا ، فاذا كتب شاعر قصيدة من البحر المنسرح ذات شطرين وقافية موحدة ، كانت لديهم شعرا واذا كتب ناثر فقرة نثرية خالية من الوزن والقافية تمام الخلو كان ذلك ، في حسابهم ، شعرا ايضا . فلا فرق اذن بين الشعر والنثر لانهما كليهما يسميان في عرفهم شعرا ، وعلى هذا يكون كتاب الرافعي (رسائل الاحزان) شعرا مثل معلقة امرىء القيس تماما لا فرق بينهما . وما ذلك الا لان الدعوة لا

---

(٢) اعتذر الى القارىء عن قولي (شعر موزون) فليس هناك في رأيي شعر الا وهو موزون وانما اتحدث بلغة البدعة .

(٣) هو جبرا ابراهيم جبرا ، مجلة شعر العدد ١٥

(٤) يشير ابراهيم جبرا بهذا الى كتاب عنوانه « في جب الاسود » وهو كتاب نثر . ويلاحظ ان توفيق صائغ مؤلف هذا الكتاب لم يكتب في حياته بيت شعر واحد فيما أعلم . ان كل ما يكتبه نثر مثل النثر . فلا ندري كيف يرضى جبرا ابراهيم جبرا ان يسميه (شعرا) .

(٥) مجلة شعر . العدد ١٦

تؤمن بوجود صلة بين الوزن والشعر فالكلام يكون شعرا سواء أكان موزونا أم لم يكن . لا بل ان النثر — لديهم — اكثر شعرية من الشعر ، لان وزن الشعر تقليدي كما سبق ان رأينا من احكام خزامى صبري وجبرا ابراهيم جبرا .

وهكذا نجد انصار هذه الدعوة يلغون الفرق بين الموزون وغير الموزون الغاء تاما ، ومن ثم يحق لنا ان نسألهم : لماذا اذن ميزت لغات العالم كلها بين الشعر والنثر ؟ وما الفرق بين الشعر والنثر ان لم يكن الوزن هو العنصر المميز ؟

ان هذا يسوقنا الى ان نرجع باذهاننا الى الاصل الفكري للتسميات اللغوية . ولسوف نلاحظ ان التسمية تقصد في الاصل تشخيص نواحي الخلاف بين الاشياء لا نواحي الشبه . فاذا قلنا « الليل والنهار » او « الشعر والنثر » فان احد الاسمين في كل فريق يشخص الناحية الكبرى التي يختلف بها عن قرينه . ان الليل والنهار يتشابهان في انهما كليهما يحتويان ، في المتوسط ، على اثنتي عشرة ساعة ، كما ان الشعر والنثر يتشابهان في ان كلا منهما يحتوي على عواطف انسانية وصور معبرة في المتوسط . غير ان قولنا الليل والنهار لا يثير في اذهاننا مسألة عدد الساعات هذه كما ان قولنا الشعر والنثر لا يثير لدينا مسألة المحتوى العاطفي والجمالي ، وانما تشخص التسميات الاربع خصائص اكبر من هذه وأوضح ، تشخص الظلام في الليل والضياء في النهار ، كما تشخص الوزن في الشعر وعدم الوزن في النثر . ومن ثم فاذا نحن سمينا كل كلام شعرا بمعزل عن فكرة الوزن ، فسوف نكون كمن يسمي الحياة كلها نهارا سواء أكان فيها ضياء أم لا . وانه لواضح انها تسمية مفتعلة . ان الليل ليل ، والنثر نثر . وواجبنا نحو اللغة والذهن الانساني ان نسميهما ليلا ونثرا دون أن ننتحل لهما تسميات مضللة لا تشخص شيئا . وما الذي نستفيده من تسمية النثر شعرا والليل نهارا يا ترى ؟ اوليس تشخيص الفروق احسن من ذلك واجدى ؟

ان اللغة ، التي هي محصول الذهن الانساني عبر عشرات القرون ، لا تضع الاسماء اعتباطا ولا عبثا وانما هناك مفهوم فلسفي عام يكمن وراء كل تعريف وتسمية ، في كل لغة . تحاول اللغة ان تشخص الملامح البارزة ، وترمي بذلك الى تصنيف الاشياء تصنيفا يسهل على العقل مهمة التفكير ، ويعطي الانسانية مجالا للتعبير عن منطقها وفكرها . فما نكاد نلفظ كلمة النهار في اية لغة حتى يشرق الضوء في الذهن الانساني وتنبسط فكرة النور ، وما نكاد نلفظ كلمة الشعر حتى ترن في ذاكرة البشرية موسيقى الاوزان وقرقعة التفعيلات ورنين القوافي . واليوم جاءوا في عالمنا العربي ليلعبوا لا بالشعر وحسب وانما باللغة ايضا وبالفكر الانساني نفسه . ومنذ اليوم ينبغي لنا ، على رأيهم ، أن نسمي النثر شعرا والليل نهارا لمجرد هوى طارىء في قلوب بعض ابناء الجيل الحائرين الذين لا يعرفون ما يفعلون بانفسهم .

ولست اظنني ابالغ حين احكم بان هذه المحاولة تكاد تكون تحقيرا للذهن الانساني الذي يحب بطبعه تصنيف الاشياء وترتيبها . فاذا اطلقنا اسما واحدا على شيئين مختلفين تمام الاختلاف فما وظيفة الذهن الانساني ؟ واذن فلماذا لا نرتد الى فترات الجاهلية اللغوية ، يوم لم تكن هناك اسماء للاصناف ؟ وانما التصنيف وتسمية الاصناف نتاج الحياة الفكرية للامم ، كلما كانت الامة اعرق في الفكر والحضارة ، كانت تفاصيل التسميات اكثر وادق . وعلى هذا لا تكون تسمية النثر شعرا اكثر من نكسة فكرية وحضارية يرجع بها الفكر العربي الى الوراء قرونا كثيرة .

ولا يقف الامر عند هذا الحد وحسب وانما نجد له جذورا تمس الجانب الاجتماعي للغة . فلعلنا نستطيع ان نلاحظ كلنا ان تسميتنا للنثر « شعرا » هي ، في حقيقة الامر ، كذبة لها كل ما للكذب من زيف وشناعة ، وعليها ان تجابه كل ما يجابهه الكذب من نتائج . والكذبة اللغوية لا تختلف عن الكذبة الاخلاقية الا في المظهر . ان كل كذبة سائرة الى ان تنكشف امام عيون الطبيعة الصادقة التي لا تنطق الا بالحق وبالاستقامة . واللغة الانسانية ، كل لغة ، هي الصدق في انقى معانيه وأسماها . انها واقعية لانها تسمي الاشياء باسمائها الحقة ، فلا تخون ولا تكذب ولا تزيف . وهكذا نجد الكرسي يسمى كرسيا لان هذا الاسم يعطينا صفته في الاحوال كلها ولا يكذبنا قط . والنثر يسمى في اللغة نثرا لان اسمه هذا يعطينا صفة النثر ، كما أن الشعر يسمى شعرا ليعطينا صفة الشعر. وهذا الصدق المطلق في اللغة يكسبها ثقتنا واجلالنا . وهو ، ايضا ، يحمينا نحن الذين نتكلم هذه اللغة من أن نكذب ، فنحن نشدها الينا ونلوذ بصدقها في ساعات الضيق . فاذا هوجم شاعر بانه يكتب نثرا لا شعرا ، وجد امامه هذه اللغة الصادقة ذات التعابير المحددة الصريحة المستعدة لحمايته فيلوذ بها ويقول لمن يتهمه ان انتاجه شعر لا نثر . وهو في هذه الحالة يستعمل رصيد « الشعرية » الذي تملكه لفظة (شعر) في اذهان الناس . وهم ينسبون الى ما يكتب كل صفات الشعر فورا بمجرد ان يقول لهم ذلك .

والحق ان لغتنا العربية لن تحمينا بعد اليوم . ذلك ان هناك اليوم اناسا يكتبون النثر ويسمونه ، في جرأة عجيبة ، شعرا ، حتى فقدت كلمة شعر صراحتها ونصاعتها . ولسوف يتشكك الجمهور في أي شعر نقدمه له باسم (الشعر) لان لفظ شعر قد تبلبل معناه واختلط وضاع . والواقع ان هذه الكذبة ، وكل كذبة مثلها ، خيانة للغة العربية وللعرب انفسهم بالتالي . ان اللغة التي يستعملها اناس غير صادقين سرعان ما تتلوث بالكذب وتفسد . وعندما تكتشف الحياة ، او الضمير اللغوي العام الكامن في النفس البشرية — ان كلمة (شاعر) قد اصبحت نعتا للناثر ، فانها ستضطر الى الشك في كلمة (شاعر) وكلمة (شعر) . فمهما أكد الناس انهم يكتبون شعرا فلن يصدقهم أحد قبل التثبت الاكيد .

وما معنى هذه النتيجة ؟ معناها اننا لن نزيد على ان نخسر كلمة مهمة من كلمات اللغة فتموت كلمة (شعر) . ومن الطبيعي الا يعني ذلك ان الشعر نفسه سيموت . فلو زالت الكلمة من القاموس العربي لبقي الناس ينظمون الشعر مع ذلك . فانما اللغة رموز تذهب وتجيء . واما الحقائق التي تكمن وراء تلك الرموز فانها لا تموت على الاطلاق . ان الحقيقة لا تزيف مهما تلاعبنا باسمها . بلى نستطيع ان نزيف كلمة ناصعة بان نطلقها على ما لا تمثله في الاصل ، ولكننا بذلك سنقتل الكلمة نفسها ، واما الحقيقة فسوف تبقى ناصعة . وسرعان ما ستجد تلك الحقيقة لنفسها اسما آخر جديدا فيه النصاعة اللازمة . وبهذا تخلد الحقيقة وتسقط الكلمة .

ولسوف يجد دعاة « قصيدة النثر » انفسهم حيث بدأوا ، فلقد استحال معنى كلمة (شعر) الى التعبير عن النثر كما ارادوا ، غير ان الشعر وجد لنفسه اسما آخر

— التتمة على الصفحة ٧٠ —

قصيدة النثر

— تتمة المنشور على الصفحة ٧ —

صادقا ينص على الوزن الذي حاولوا قتله . ولسوف يبقى الناثرون حيث كانوا مع الناثرين .

المناقشة على اساس النقد الادبي

يبدو لنا ان دعوة النثر ، في احكامها على الشعر ، تستند الى تعريف له يضع الالحاح كله على المحتوى او (المضمون) . فالشعر ، في نظر أصحاب هذه الدعوة ليس الا معاني من صنف معين ، فيها خيال وعاطفة وصور، ونسواء بعد ذلك ان يكون موزونا او غير موزون ، لان الوزن، في رأيهم ، ليس شرطا في الشعر . وعلى هذا الاساس يكون للشعر في نظرهم عنصر واحد هو المضمون . فاذا أردنا ان نستخلص للشعر تعريفا مشتقا من آرائهم هذه قلنا انه « تجمع معان جميلة موحية فيها الاحساس والصور » .

ومن الواضح ان مفهومهم هذا للشعر يقف في الطريق الاقصى المواجه للتعريف العربي القديم الذي كان يحدد الشعر بانه « الكلام الموزون المقفى » وهو تعريف يجعل الوزن الاساس الاعظم للشعر دون اعتراف بالمضمون . والحقيقة ان كلا التعريفين قاصر ناقص : التعريف الجديد يهمل الشكل والتعريف القديم يهمل المضمون . فكأن هؤلاء المعاصرين ارادوا تصحيح مفهوم مغلوط قديم فوقعوا في مفهوم مغلوط جديد . ولا يخفى علينا ان غلط التعريف الجديد اشد واكبر من غلط تعريف اسلافنا .

واما اذا اردنا ان نرجع الى صوت الواقع في انفسنا ، وان نحكم عقولنا فلسوف نتنهي الى أن للشعر ركنين ضروريين لا بد منهما في كل شعر وهما :

١ — النظم الجيد (الشكل) او (الوزن) .

٢ — المحتوى الجميل الموحي ، المتموج بالظلال الخافتة والاشعاع الغامض الذي تنتشي له النفس دون ان تشخص سر النشوة .

وانه لمن المؤسف ان كلمة « نظم » قد اصبحت تزدرى في عصرنا وكأنها اهانة يسب بها الشاعر . ذلك انها كلمة جليلة ، لا بد لكل شاعر من ان يملك ناصيتها . ذلك ان الشاعر المبدع لا بد ان ينطوي على ناظم متمكن بارع والا لم يكن شاعرا . والنظم هو المرحلة الاولى في كل شعر . واما ان هناك اناسا ينظمون شعرا موزونا يخلو من عبقرية الابداع ورعشة الموسيقى فان ذلك لا يهين كلمة « النظم » . ان كل شاعر ناظم بالضرورة ، وليس كل ناظم شاعرا ، وذلك لان الشعر أعم من النظم ، فهو يحتويه دون ان يقتصر عليه . وواقع الامر ان الناس ، بالنسبة للشعر ، ثلاثة :

١ — انسان يتذوق الشعر ويطرب له الا انه لا يميز الموزون من المختل وقد يمر على غلط عروضي فلا يدركه . ومن هذا الصنف كثير من الناس .

٢ — انسان ينظم الموزون نظما متقنا جاريا على قواعد العروض ، دون ان تنبض منظوماته بالجمال او تتفجر بدفء الابداع . وهذا هو الناظم .

٣ — انسان يحسن النظم ويتقنه حتى ليوجع النشاز سمعه وروحه وهو فوق ذلك يمتلك موهبة تفجير الموسيقى والسحر فيما يكتب . وهذا هو الشاعر . وهو في هذا الباب في المرتبة الاولى من اصناف الناس .

والذي لا ريب فيه أن الناظمين اناس ذوو موهبة وان لم تكن موهبتهم كاملة ، ولذلك ينبغي لنا ان نحترم موهبتهم ، وأن نثني عليهم بما يستحقون . نقول هذا ونحن نرى الاتجاه لدى طائفة من الشعراء اليوم الى احتقار الناظمين والتشنيع عليهم . وانما الحق ان ينظر هؤلاء الشعراء الى انفسهم ليكملوا ما ينقصهم من عدة الناظم ومقدرته . فما قيمة شعر جميل الصور ولكن أوزانه تتعثر بالسقطات ؟ ان الناظم الذي يحسن النظم أجدر باعجابنا ، لو انصفنا ، من شاعر لا يحسن النظم . ذلك ان الاول ، بصفة كونه ناظما ، قد استكمل عدة فنه حين أتقن النظم وضبط اصوله . واما الشاعر فانه ، وهو يجهل قواعد النظم ، انما يفتقد جزءا مهما من عدة الشاعر، لان الوزن هو الروح التي تكهرب المادة الادبية وتصيرها شعرا ، فلا شعر من دونه مهما حشد الشاعر من صور وعواطف . لا بل ان الصور والعواطف لا تصبح شعرية ، بالمعنى الحق ، الا اذا لمستها أصابع الموسيقى ، ونبض في عروقها الوزن .

هذا مجمل رأينا ، والواضح ان انصار (قصيدة النثر) يخالفوننا فيه . وانما الوزن ، في عرفهم ، مجرد شكل خارجي عارض اصطلح الاقدمون عليه ، فلو حذفناه وكتبنا الشعر من دونه لانقذنا شعرنا من التقليد وجئنا بشيء طريف .

واننا لنحب ان نسألهم ، على ذلك ، سؤالا لعل له عندهم جوابا : ترى اذا استطاع ناثر وشاعر ان يعبرا ، كل باسلوبه الشخصي ، عن عين الكمية من الصور والعواطف والاخيلة ، فايهما سيهز السامعين هزا اشد ؟ أيهما سيبعث فيهم مقدارا من النشوة اكبر ؟ والى ايهما سيستجيب الذوق الانساني استجابة أرهف وأحر ؟ اما في رأينا فان الجواب واضح وبديهي . ان الموزون الطافح بالصور والاخيلة والعواطف سيملك قلوبنا ويهزنا ويثيرنا اكثر من النثري الطافح بنفس المقدار من الجزئيات . وذلك لان عنصرا جماليا جديدا قد أضيف اليه هو الموسيقى والايقاع .

والسبب المنطقي في فضيلة الوزن ، هو انه ،

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب — بيروت

بطبعه ، يزيد الصور حدة ، ويعمق المشاعر ويلهب الاخيلة. لا بل انه يعطي الشاعر نفسه ، خلال عملية النظم ، نشوة تجعله يتدفق بالصور الحارة والتعابير المبتكرة الملهمة . ان الوزن هزة كالسحر تسري في مقاطع العبارات وتكهربها بتيار خفي من الموسيقى الملهمة . وهو لا يعطي الشعر الايقاع وحسب وانما يجعل كل نبرة فيه أعمق واكثر اثارة وفتنة. ولذلك كان الشعر مؤثرا بحيث كان القدماء يعدونه ضربا من السحر يسيطر به الشاعر على الجماهير . وقديما كان الشعر قرين أصحاب الرؤي والكهان وحتى الانبياء الى درجة جعلت القرآن الكريم يبرىء الرسول في الآية « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

ولا ريب في ان النثر ، بافتقاره لهذه الموسيقى المؤثرة ، يفقد خاصية يتفوق بها الشعر عليه في اثارة المشاعر ولمس القلوب . ولذلك كان النثر ، في الغالب ، قرين البحث العلمي والدراسة الموضوعية ، حتى اصبحنا نصف الشعر الذي لا يطربنا بانه « نثري » . والحقيقة التي لا مفر لنا من مواجهتها ان الناثر ، مهما جهد في خلق نثر تحتشد فيه الصور والمعاني ، يبقى قاصرا عن اللحاق بشاعر يبدع ذلك الجمال نفسه ولكن بكلام موزون . فالوزن في يد الشاعر قمقم سحري يرش منه الالوان والصور على الابيات المنظومة . وهيهات للناثر ان يستطيع ذلك بنثره . اترى دعاة قصيدة النثر ينكرون ان خواطر محمد الماغوط التي اخترناها تكون أجمل لو كتبت شعرا لا نثرا ؟ نقول ذلك لا لننتقص من تلك الخواطر وانما لمجرد انها كتبت نثرا وتطاولت الى ان تسمي نفسها شعرا . وانما النشوة والموسيقى والدفء من مصاحبات الوزن ، فمن رغب فيها فليكن شاعرا وليعرف كيف يرقرق معانيه في قصائد متدفقة . وبعد فليس يعيب النثر انه ليس شعرا . وأن الموسيقى ملازمة للشعر لا له . ان تلك هي طبيعة الاشياء وكل لما خلق له .

وفي وسعنا ، ختاما ، ان نلخص تعريف الشعر بانه ليس عاطفة وحسب ، وانما هو عاطفة ووزنها وموسيقاها. وعلى ذلك فان قدرة الناثرين على حشد العواطف والصور في نثرهم لا يقرب ما يكتبون من الشعر اي تقريب . وانما جمال ما يكتبون مرتبط بكونه نثرا ، ولن يكون شعرا الا اذا نجحوا في صياغته شعرا . وتلك موهبة الشاعر دون الناثر ، وهو أمر يترك النثر خارجا مهما قالوا ومهما جهدوا .

واحب ان أذكر اصحاب الدعوة اخيرا بانهم ، بعد كل ما قالوا وكتبوا وضجوا ، ما زالوا هم انفسهم مضطرين الى التمييز بين الشعر والنثر : وهذه خزامى صبري نفسها ، في فقرتها التي اقتبسناها ، تتحدث عما تسميه (وزنا تقليديا) — تقصد الشعر — ووزنا غير تقليدي — تقصد النثر . فلا نراها فعلت اكثر من استبدال الكلمتين العربيتين الدالتين : (شعر ونثر) باصطلاحات معقدة جديدة فيها عموم وغموض . وهل حقا ان قولهم (وزن تقليدي) أحسن من قولنا (شعر) ؟ ام ترى قولهم (وزن غير تقليدي) يصلح اسما للنثر ؟ ولماذا اضطروا الى التمييز بين الاثنين ؟ والواقع الذي لا جدال فيه ، انهم اذا لم يعترفوا بان الشعر شعر والنثر نثر ، فلا بد ان يعترفوا بان بينهما فرقا واضحا . وهذا يدحر كل مناقشة قد يوردونها . ان هناك شيئا اسمه الوزن ، وهو يفرض عليهم نفسه مهما تجاهلوه .

نازك الملائكة

دار الطليعة للطباعة والنشر

تقدم

الخبز مع الكرامة

تأليف الدكتور يوسف عبدالله الصايغ

تحليل علمي للمضمون الاقتصادي الاجتماعي للمفهوم القومي العربي

الشيوعية

تأليف هارولد لاسكي — ترجمة خيري حماد

الكتاب الوحيد المحلل للشيوعية من وجهة نظر الاشتراكيين الديمقراطيين

الثورة القادمة

تأليف ايفان كربو — ترجمة غيات حجار

المخطط الاوفى الذي يرسم الدروب الجديدة للاشتراكية السليمة

فرق ... تخسر

تأليف ميشيل ابو نيدس — ترجمة خيري حماد

اجرأ كتاب في الكشف عن السياسة الانكليزية في الوطن العربي

الجذور التاريخية للشعوبية

تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري

تحليل واقعي لعناصر الشعوبية السياسية والدينية والادبية

السلطان

تأليف تيراندراسل — ترجمة خيري حماد

اعمق دراسة عن فلسفة الحكم والسيطرة والنفوذ

دار الطليعة ص.ب ١٨١٣ تلفون ٢٥٧١٧٨